مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد ٢١ (٣)، ٢٠٠٧

الوزير نظام الملك ودوره في الحياة العامة في الدولة السلجوقية

The Minister Nizam Al-Mulk and His Role in the Saljuq State's Public Life

هاني أبو الرب

Hani Abu Al-Rub

جامعة القدس المفتوحة، منطقة جنين التعليمية، جنين، فلسطين.

بريد الكتروني: habu-al-rob@qou.edu

تاريخ التسليم: (٢٠٠٧/٢/٦)، تاريخ القبول: (٢٠٠٧/٥/٢٦)

ملخص

تناول البحث الوزير نظام الملك (٤١٨-٤٨٥هـ) ودوره في الحياة العامة في الدولة السلجوقية، من حيث سيرته قبل توليه الوزارة والمناصب التي تدرج فيها، حتى نالها. ودوره في الحياة الإدارية والسياسية والعسكرية والعلمية منذ توليه الوزارة حتى اغتياله. نشأ نظام فقيراً لأب يعمل جابياً للضرائب، إلا أن ذكاءه وهمته العالية في طلب العلم، وقابلياته الشخصية، أهلته إلى التدرج في المناصب الإدارية إلى أن تولى الوزارة في زمن السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه، فامتدت وزارته ثلاثين عاماً، حقق خلالها الكثير من الانجازات وفي مقدمتها إشاعة العدل ورد المظالم وإلغاء المكوس، واستحداث نظام الإقطاع العسكري بدلاً من نظام العطاء، وتوج انجازاته الإدارية والسياسية بتأليف كتابه سياسة الملوك (سياست نامة) الذي وضع خلاصة خبراته وآرائه في الإدارة والحكم. كما أنه شجع الحركة العلمية بإنشاء دور الكتب والمدارس، وفرض الرواتب للعاملين وللطلاب فيها، والمشاركة في مجالس العلم، وتكريم كبار علماء السنة في عهده ولاسيّما الشافعية الذين ينتمي إلى مذهبهم، مما أثار عليه حفيظة الشيعة وخاصة الإسماعيلية منهم فاتهموه بالتعصب المذهبي، واتهمه السلطان وحاشيته بالاستبداد بالسلطة، مما أدى إلى اغتياله.

Abstract

This research casts the light on the Saljuq minister Nizam al-Mulk and his role in the political, administrative and cultural life. Despite poverty, he fulfilled his ambition of being a minister by his intelligence and personal qualifications. During his ministry, which lasted thirty years, he achieved a lot in security and justice. He abolished taxes and established the feudal military system instead of the salary system. He crowned his achievements with his book "Seyasat-nameh" (Kings' Policies) which includes the sum of his experience in administration and policy. In addition to that he encouraged education by establishing libraries and schools, paying salaries for teachers and students, honoring the Sunni scholars especially the Shafiate followers, as he was one of them. That led the Ismaelia (A Shia group) to rebel against him accusing him of being fanatic, and the Sultan accused him of political tyranny which led to his assassination.

المقدمة

كانت الرغبة في التعرّف إلى شخصية نظام الملك ودوره في الحياة الإدارية والسياسية والعلمية في الدولة السلجوقية هي الدافع لاختياره موضوعاً لهذا البحث.

وأبرز المشاكل التي واجهت الباحث هي عدم توفر الدراسات الحديثة باللغة العربية عن الموضوع، فاعتمد الباحث بشكل رئيسي على المصادر الأولية، وأفاد من بعض الدراسات الحديثة باللغة الإنجليزية في التعرف إلى مصادر البحث، ووضع خطة له.

وتمَّ تقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، وقائمة للمصادر والمراجع. وقد اشتملت المقدمة على أسباب اختيار الموضوع والمشاكل التي واجهت الباحث، وعناصر البحث.

وتناول المبحث الأول سيرة نظام الملك قبل استلامه منصب الوزارة من حيث: اسمه ونسبه وثقافته والأعمال التي شغلها. وتناول المبحث الثاني دوره في الحياة الإدارية والسياسية والعسكرية بعد توليه الوزارة، مثل ردّه للمظالم، وإنشائه فرقة المماليك النظامية في الجيش، ومشاركته في الجهاد، واستحداثه لنظام الإقطاع العسكري. وتحدث المبحث الثالث عن دوره في الحياة العلمية في الدولة السلجوقية مثل: إكرامه للعلماء، وإنشاء المدارس والمساجد والربط خدمة لهذا الغرض. وناقش المبحث الرابع قضية اغتيال نظام الملك من حيث أسبابها والجهات التي تقف وراءَها. واشتملت الخاتمة على خلاصة البحث والنتائج التي توصل إليها الباحث.

سيرته قبل الوزارة

هو أبو علي الحسن بن علي بن اسحق بن العباس الطوسي الملقب بنظام الملك [(١)]، ولد سنة (٤٠٨ هـ/١٠١٧م) في نوقان إحدى قرى الراذكان التابعة لولاية طوس[(٢)] وقد وصفها ياقوت الحموي بأنها إحدى قصبتي طوس*، لأن طوس ولاية لها مدينتان احداهما نوقان [(٣)]، وعمل والده دهقانا** في منطقة بيهق التابعة لطوس زمن الغزنويين [(٤)]، ذكر ابن كثير أن والد نظام كان من أصحاب السلطان محمود سبكتكين الغزنوي (٣٨٧-٤٢١م) (٩٩٧-١٠٣٠م) [(٥)].

وأكد ذلك أيضاً الدكتور غلام حسين بالاعتماد على مصادر فارسية في تصديره لكتاب "سياست نامة" فقال بأن والد نظام الملك عمل في خدمة أبي الفضل سوزي بن المعتز حاكم خراسان من قبل الغزنويين، جابياً لضرائب منطقة طوس ومكوسها***، لكن دخله لم يكن يفي

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، (١٣٥٩هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (حيدر باد الدكن- الهند) ج٥، ص: ٦٤، أحمد بن محمد بن خلكان، (١٩٤٨م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة-مصر) ج١، ص: ٣٩٥.

(٢) ابن خلكان، (١٩٤٨م) وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٧.

* طوس: مدينة بخراسان تشتمل على بلدتين يقال لاحداهما الطابران والأخرى نوقان ويتبع لها أكثر من ألف قرية وبها قبر الخليفة هارون الرشيد أنجبت العديد من العلماء والمحدثين والساسة منهم حجة الاسلام أبو حامد الغزالي الذي توفي ودفن فيها سنة ٥٠٥هـ، ومحمد بن طغماج صاحب المسند، والوزير نظام الملك.

ينظر ياقوت الحموي (١٩٥٧)، معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر (بيروت-لبنان) ج٤، ص: ٤٩-٥٠.

(٣) ياقوت الحموي، (١٩٥٧م) معجم البلدان، دار صادر للطباعة ودار بيروت للطباعة والنشر (بيروت- لبنان) ج٥، ص: ٣١١.

** الدهقان: رئيس القرية والتاجر ومن له مال. ينظر المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت: ٧٧٠/١٣٦٨م) (١٩٥٠م)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة-مصر)، ج١، ص: ٢١٦.

(٤) ابن الجوزي، (١٣٥٩هـ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٤، ابن خلكان، (١٩٤٨م) وفيات الأعيان، ج١ ص: ٣٩٥.

(٥) إسماعيل بن كثير، (١٩٧٧م)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت - لبنان) ج١٢، ص: ١٤٠٠.

ينظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص: ١٧٦-١٨١.

السلطان محمود بن ناصر الدولة سبكتكين ولد سنة ٣٩١هـ وتولى السلطنة في الفترة ما بين (٣٨٧- ٤٢١هـ) اشتهر بفتوحاته في الهند وتقرب من العلماء والفقهاء وعلى رأسهم الشافعية.

*** المكوس جمع مكس وغلب استعماله على ما يأخذه أصحاب السلطان من التجار ظلماً عند البيع والشراء في المراصد والأسواق. ينظر المقري، المصباح المنير، ج٢ ص: ٢٤٣، الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ب.ت)، مفاتيح العلوم، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، ص: ٤٠.

بنفقاته [١]. وتوفيّت والدة نظام وهو رضيع، فلم يكن بمقدور والده توفير مرضعة له بسبب ضيق ذات يده، فأرضعته النساء مجاناً حسبة لله تعالى، ذكر ابن الأثير أن نظام الملك "زال ما كان لأبيه من مال وملك، وتوفيّت أمه وهو رضيع، فكان أبوه يطوف به على المرضعات، فيرضعه حسبة، أي دون مقابل" [٢].

نشأ نظام الملك فقيراً لكنه كان طموحاً عالي الهمّة كما وصفه ابن الجوزي "كان عالي الهمّة إلا أنه كان فقيراً" [٣] وأكد ذلك ابن خلدون أيضاً، فقال: "ذهبت نعمة آبائه وماتوا، فنشأ يتيماً". [٤] إلا أن همتّه العالية تغلبت على اليتم والفقر فانصرف منذ صغره إلى طلب العلم، كما يُفهم من قول ابن الأثير أن نظام الملك شبّ "وسرّ الله فيه يدعوه إلى علو الهمّة والاشتغال بالعلم فتفقه وصار فاضلاً" [٥].

بدأ نظام الملك تعليمه في بلدته نوقان حيث تعلّم العربية وقرأ القرآن، ودرس الفقه على المذهب الشافعي، وسمع الحديث [٦]، وذكر الذهبي أن نظاماً ختم القرآن وعمره أحدَ عشر عاماً [٧] وأجمل ابن كثير ما تقدم ذكره عن ثقافة نظام بقوله "قرأ القرآن وله إحدى عشرة سنة، وأشغله والده بالعلم والقراءات والتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وسماع الحديث واللغة والنحو، وكان عالي الهمّة فحصّل من ذلك طرفاً صالحاً" [٨].

---

(١) نظام الملك الحسن بن علي الطوسي، (ب.ت)، سياست نامة، ترجمة يوسف بكار، دار القدس (بيروت-لبنان) ص: ١٣.

(٢) علي بن محمد بن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، (بيروت-لبنان) ج٨، ص: ٤٨٠.

(٣) ابن الجوزي (١٣٥٩هـ)، المنتظم، ج٦، ص: ٦٤.

(٤) ابن خلدون، (١٩٧١م)، عبد الرحمن بن محمد الحضمري، تاريخ ابن خلدون، (بيروت-لبنان)، ج٥، ص: ١٢.

(٥) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨٠.

(٦) عبد الوهاب بن تقي الدين السّبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية، (القاهرة-مصر) ج٣، ص: ١٣٦.

(٧) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد، (١٩٨٤م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، (بيروت: لبنان) ج١٩، ص: ٩٦.

(٨) ابن كثير، (١٩٧٧م)، البداية والنهاية، ج١٢، ص: ١٤٠.

ويبدو أنه في شبابه اهتم بسماع الحديث أكثر من غيره من العلوم يُشعر بذلك قول ابن تغربردي: "كان نظام فقيراً مشغولاً بسماع الحديث" (١) فتنقل في طلبه بين مدن العراق وخراسان، فقد جاب مدن الري، وأصفهان*، ونيسابور** وبغداد، وسمع الحديث من شيوخها (٢)، ويؤكد ذلك أيضاً قول ابن كثير أنَّه سمع الحديث في أماكن شتى ببغداد وغيرها" (٣). وأراد النظام بذلك تخليد اسمه ضمن رواة الحديث عن رسول -الله صلى الله عليه وسلم-، يفهم ذلك من قول أخيه أبي القاسم "كان أخي نظام يُملي الحديث بالرّي، فلما فرغ قال: إني لست أهلاً لما أتولاه من الإملاء، لكني أريد أن أربط نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٤).

واهتم في شبابه أيضاً بتعلم الكتابة والحساب، وعمل بعد ذلك في دواوين الدولة الغزنوية (٣٥٢-٥٨٣هـ/٩٦٢-١١٨٧م) في غُزنة***، فبرع في علوم الكتابة والحساب والإنشاء، واكتسب التجربة والخبرة الإدارية، ذكر الذهبي: أن نظاماً "سار إلى غزنة، فصار كاتباً نجيباً إليه المنتهى في الحساب، وبرع في الإنشاء، وكان ذكيّاً لبيباً كامل السؤدد" (٥) وذكر الدكتور غلام حسين أن نظاماً " كان ذكياً استطاع وهو في سن العشرين أن يظفر بنصيب وافر من

(١) بن تغري بردي جمال الدين يوسف، (ب.ت)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، (القاهرة- مصر) ج٥، ص: ١٣٦.

* أصفهان: إحدى مدن اقليم فارس، اشتهرت بعذوبة مائها وطيب هوائها وكثرة خيراتها حيث كان خراجها يبلغ ١٢ مليون دينار سنوياً، كما اشتهرت بكثرة علمائها. ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص: ٢٠٦-٢٠٧.

عبد الهادي محبوبه (١٩٩٩) نظام الملك، الداري المصرية اللبنانية (القاهرة-مصر)، ص: ٥٧٠-٥٧١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر (بيروت-لبنان)، ص: ١٩٨.

** نيسابور إحدى مدن خراسان فتحها المسلمون سنة ٣١هـ في خلافة عثمان اشتهرت بكثرة علماء الحديث فيها وعلى رأسهم الحسين بن علي النيسابوري، خربها التتار بعد استيلائهم على خراسان. ينظر ياقوت الحموي (١٩٥٧م)، معجم البلدان، ج٥، ص: ٣٣١-٣٣٢.

(٢) السبّكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٠.

(٣) ابن كثير، (١٩٧٧م)، البداية والنهاية، ج١٢، ص: ١٤٠.

(٤) السّبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج ٣، ص: ١٤٠.

*** غُزْنَة قصبة في ولاية زابلستان (افغانستان حالياً) اتخذها الغززنويون عاصمة لدولتهم، وهي قريبة من مدينة قندهار ومناخها شديد البرودة. ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص: ٢٠١. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، (ب.ت)، رحلة ابن بطوطة، ص: ٣٩٢.

(٥) الذهبي، (١٩٨٤م)، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص: ٩٦.

العلوم الشرعية، وكان إلى جانب ذلك كاتباً قديراً كفؤاً، وكان على اطلاع على أكثر العلوم" (١) وكان يتقن اللغتين العربية والفارسية، وقد زادته خبرته في العمل مقدرة وكفاءة فهو على حدّ قول السُّبكي: "لم يكن في زمانه من هو أكفأ منه في صناعة الحساب وصناعة الإنشاء، ووصفوه بسداد الألفاظ فيهما عربية وفارسية(٢)، وقد استخدم اللغة الفارسية في مراسلاته مع سلاجقة الروم (٣١٩-٧٠٧هـ/١٠٧٧-١٣٠٧م)، وفي تأليف كتابه سياست نامة" (٣).

وبعد أن تنّقل في دواوين غزنة وخراسان استقر في خدمة علي بن شاذان عامل السلاجقة على بلخ، فعمل كاتباً له، ذكر ابن الجوزي أن نظاماً "اتصل بعلي بن شاذان عامل السلاجقة على بلخ فكان يكتب له" (٤). وذكر ابن خلدون أن نظاماً "حذق في العلوم والصنايع، وعلق بالخدم السلطانية في بلاد خراسان وغزنة وبلخ**، ثم لازم خدمة أبي علي بن شاذان وزير ألب أرسلان" (٥).

وهيأ له عمله عند علي بن شاذان فرصة الاتصال بأمراء السلاجقة مباشرة، فصار كاتباً لألب أرسلان قبل توليه السلطنة (٤٥٢-٤٦٥هـ/١٠٦٠-١٠٧٢م)، وهناك روايتان مختلفتان عن كيفية دخوله في خدمة ألب أرسلان، الأولى تقول: بأنه عندما عمل عند علي بن شاذان صار الأخير يصادره في كل سنة، فهرب من سوء معاملته، ولجأ إلى داوود بن ميكائيل والد ألب أرسلان، فعينه مستشاراً وكاتباً لابنه، وأوصى ألب أرسلان به قائلاً: "اتّخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به" (٦).

أما الرواية الثانية فتقول بأن نظام الملك ظل في خدمة وزير ألب أرسلان علي بن شاذان حتى وفاته، ولما شعر ابن شاذان بدنو أجله "أوصى به إلى السلطان ألب أرسلان وعرّفه كفايته

---

(١) نظام الملك، (ب.ت) سياست نامة، ص: ١٣.

(٢) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٧.

(٣) تامارا رايس، (١٩٦٨م)، السلاجقة، تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفي الخولي وإبراهيم الداقوقي، مطبعة الإرشاد، (بغداد: العراق)، ص: ١٤٥.

(٤) ابن الجوزي، (١٣٥٩هــ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٤.

** بلخ: مدينة مشهورة بخراسان وهي من أوسع مدنها غلة وأكثرها خيراً، فتحت في خلافة عثمان بن عفان وينسب إليها الكثير من علماء الحديث أشهرهم الحسن بن شجاه البلخي.
ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص: ٤٧٩-٤٨٠.

(٥) ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.

(٦) ابن الجوزي، (١٣٥٩هــ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٤، ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٥.

فاستخدمه" [١]. ويفهم من الروايتين أن كفاءة نظام الملك لفتت انتباه والد ألب أرسلان أو وزيره علي بن شاذان، فقام واحد منهما بتعريفه بألب أرسلان وإدخاله في خدمته، فعمل كاتباً لألب أرسلان حتى تولى الأخير عرش سلطنة السلاجقة فعيّنه وزيراً له. والفرق بين الروايتين أن الأولى تتهم علي بن شاذان بالإساءة إلى نظام، بينما تُظهر الثانية إحسانه إليه.

وبذلك يمكن القول إن نظام الملك نشأ فقيراً يتيماً، لكن اهتمام والده بتعليمه، وهمتّه العالية في طلب العلم جعلته يحيط بعلوم كثيرة وهو في سنّ الشباب، وأكسبه عمله في الدواوين الغزنوية والسلجوقية علماً وخبرة في مجالي الإنشاء والحساب، فبرع فيهما باللغتين العربية والفارسية، ولفتت كفاءته ونبوغه أنظار أمراء السلاجقة إليه، فاتخذه ألب أرسلان كاتباً ثم وزيراً له بعد اعتلائه عرش السلطنة السلجوقية (٤٣٣-٥٨٣هـ/١٠٤١-١١٨٧م).

دوره في حكم الدولة السلجوقية وإدارتها

عمل نظام الملك وزيراً للسلطان ألب أرسلان ولابنه ملكشاه من بعده، حيث امتدت وزارته ثلاثين سنة، عشرة منها في عهد ألب أرسلان، وعشرين في عهد ملكشاه، وظل في هذا المنصب حتى قتل سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) [٢].

وقام نظام الملك خلال مدة وزارته المذكورة بإلغاء المكوس (الضرائب غير الشرعية)[٣]. وذلك بقصد التخفيف عن الرعية والرفق بها. ولم يكتف بذلك بل جلس بنفسه للنظر في المظالم، فأقام العدل وأنصف الرعية من المسؤولين والعمال حسبما ذكر الذهبي بأن نظاماً: "خفف المظالم ورفق بالرعايا" [٤]. ويؤكد ذلك قول السّبكي فيه "وإن قعد للمظالم أقام الكتاب والسّنة، وأخاف في الله ببطشه كل ذي يد عادية، تغدو بعدها النفوس مطمئنة، حتى أقرّت بالعدل عظماء السلاطين، واستقرت في أيامه بالأمن، فالناس لا يخشون نازلة المتعالين"[٥]. ومن بين تلك المظالم التي أبطلها نظام الملك، قيامه بإلغاء لعن الأشعرية على المنابر، وهو ما جرت عليه

(١) ابن الجوزي، (١٣٥٩هـ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٤، ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢ (النص منه).
(٢) ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: (٣٩٥ – ٣٩٦).
(٣) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨٠.ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.
(٤) الذهبي، (١٩٨٤م)، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص: ٩٥.
(٥) السبّكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٥.

العادة من أيام السلطان طغرل بك* (٤٣٠-٤٥٥هـ/١٠٣٨-١٠٦٣م)، حيث كان يتم لعن الأشعرية والرافضة (الشيعة). فقد ذكر ابن الأثير أن "الوزير عميد الملك الكندري** قد حسَّن للسلطان طغرل بك، التقدم بلعن الرافضة فأمره بذلك، فأضاف إليهم الأشعرية ولعن الجميع" (١). وربما يعود تعاطف نظام الملك مع الأشاعرة دون الشيعة إلى كونه شافعياً أشعرياً (٢).

ويضرب السّبكي أمثلة على حلم نظام وعدله في الرّعية، فينقل رواية لابن ماكولا كشاهد عيان لمجلس عقده نظام الملك لرّد المظالم بحضور إمام الحرمين أبي المعالي الجويني "رمى بعض أرباب الحوائج رقعة إليه، فوقعت على دواته وكان مدادها كثيراً، فسأل المداد عمامته وثيابه فاسودّت، فلم يُقطِّب ولم يتغيّر، وقد مدَّ يده إلى الرقعة، فأخذها ووقع عليها، فتعجبت من حلمه" (٣). وعقد مجلسين للمظالم ببغداد بحضور علمائها وكان "يسأل الحوائج في أثناء ذلك الوقت، ويجيب، وينعم بالهبات الطائلة والأموال الجزيلة" (٤). وهذا يفسّر لنا ثناء أمام الحرمين عليه في خطبه، والتي جاء في واحدة منها ما نصّه: "وعمّ بُرّه آفاق البلاد، ونفى الغي عنها

---

* السلطان طغرل بك محمد بن ميكائيل (٤٣٠-٤٥٥هـ/١٣٠٨-١٠٦٣م) أول سلاطين الدولة السلجوقية بعد سيطرته على العراق تزوج ابنة الخليفة القائم وقد اشتهر بالاضافة إلى فتوحاته بكثرة الصدقات وبناء المساجد. ينظر ابن خلكان وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٦٣-٦٧.

** عميد الملك الكندري، أبو نصر محمد بن منصور بن محمد، أول وزير في الدولة السلجوقية عمل وزيراً للسلطان طغرل بك طيلة حياته، ثم للسلطان الب أرسلان من بعده إلى أن عزله الأخير من الوزارة وسجنه ثم قتله سنة ٤٥٦هـ، وعين مكانه الوزير نظام الملك الطوسي. ينظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص: ١٣٨-١٤٢.

(١) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨٠. ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.

(٢) الذهبي، (١٩٨٤م)، سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص: ٩٦.

* إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، عبد الملك بن عبدالله بن يوسف الفقيه الشافعي (٤١٩-٤٧٨هـ) ولد في نيسابور وتتلمذ على يد والده، ثم رحل في طلب العلم إلى العراق والحجتز، وجاور بمكة والمدينة أربع سنوات يفتي ويدرس فلقب بإمام الحرمين. بنى له نظام الملك مدرسة نيسابور فتولى نظارتها والتدريس فيها لمدة ٣٠ سنة، وبلغ عدد تلاميذه أربعماية تلميذ وتوفي بنيسابور ودفن فيها ٤٧٨هـ. ينظر ابن خلكان، ج٥، ص: ١٦٧-١٧٠.

(٣) السّبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٨.

(٤) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤١.

بالرشاد، وجلى ظلام الظلم عدله، وكانت خطة الإسلام شاغرة، وأفواه الخطوب إليها فاغرة، فجمع برأيه الثاقب شملها، ووصل بيمين هيبته حبلها، وأصبحت الرعايا في رعايته وادعة" [١].

فهو في نظر الشافعية والأشاعرة من السنّة مثال المؤمن التقي الورع، الذي يكثر من قراءة القرآن والصلاة والصدقة، قال السّبكي الشافعي فيه: "كان من أخلاقه أنه ما جلس قط إلاّ على وضوء، ولا توضأ إلاّ وتنفل وقرأ القرآن، ولا يتلوه مستنداً إعظاما له، وإذا أذّن المؤذن أمسك عن كل شغل هو فيه وأجابه، ويصوم الاثنين والخميس" [٢]. بينما اتهمته المذاهب والفرق الأخرى وخاصة الشيعة بالتعصّب المذهبي، وملاحقة عناصرها ولاسيّما الإسماعيلية [٣]. لأنه هو وسيّده ألب أرسلان تقرّبا من الخلافة العباسية، ونصّبا نفسيهما حماةً للمذهب السنّي من خطر الشيعة والإسماعلية، ومن أجل ذلك عمل نظام الملك على كسب تأييد علماء السنّة، وفي مقدمتهم الشافعية والأشاعرة الذين ينتمي إليهم، وجند الكثير من القبائل التركمانية، وكلفها بملاحقة الإسماعيلية وقتالهم [٤]، واستمر على عدائه للشيعة في عهد ملكشاه الذي أوصاه نظام الملك في رسالته في الحكم (سياست نامة) أن يلاحق الإسماعيلية، وأن لا يستعملهم في وظائف الدولة، لأنهم -على حدّ قوله- أعداء الدولة والإسلام [٥].

وساعد نظام الملك السلطان ملكشاه في الوصول إلى عرش السلطنة، وتثبيت حكمه بعد وفاة أبيه وثورة أعمامه عليه، فعندما ثار عليه عمّه قاورد بك صاحب كرمان، كاتَبَهُ عدد من أمراء جيش ملكشاه، ولما انتصر ملكشاه على عمّه اعتذر له عن فعلته بقوله: "أمراؤك كاتبوني، وأظهر المكاتبات، فأخذها ملكشاه وأعطاها للوزير نظام الملك، فأخذها نظام الملك وألقاها في موقد نار كان بين يدي ملكشاه فاحترقت، فسكنت قلوب الأمراء، وبذلوا له الطاعة، وثبّت ملكه بهذه الفعلة" [٦].

وأسس نظام الملك فرقة في الجيش من المماليك الأتراك حملت اسمه فسمّيت بالغلمان النظامية، وكانوا رهن إشارته وطوع أمره، وقد بلغ عدد أفراد هذه الفرقة عدة آلاف يدل على ذلك قول ابن الجوزي "وملك من الغلمان الأتراك الوفا" [٧]. وهذا ما يؤكده السبّكي فيذكر أنهم كانوا ألوفاً من الأتراك بسلاحهم وخيلهم، وأن نظاماً أنفق عليهم الأموال الطائلة من خزينة الدولة

(١) السبكي (ب ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٣٧.

(٣) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٣ (تصدير الكتاب).

(4) Nizam al mulk. (1987). Encyclopedia of religion. vol.10. p 458.

(٥) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ٢١٣.

(٦) ابن تغري بردي، (ب.ت)، النجوم الزاهرة، ج٥، ص: ١٣٥.

(٧) ابن الجوزي، (١٩٤٠م) المنتظم، ج٩، ص: ٦٦.

فاتهمّه أعداؤه بالتبذير [(١)]. وقد باشر نظام الملك الحرب بنفسه جنباً إلى جنب مع غلمانه الأتراك، فشارك في غزو بلاد الروم مع السلطان، وفتح حصون عدة في ديار بكر وربيعة والجزيرة وحلب ومنبج، وعاد إلى خراسان [(٢)]. فحارب هناك الباطنية من الحشاشين بزعامة الحسن بن الصبّاح عندما بلغه أن الأخير يدعو لإمامة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ /١٠٣٥-١٠٩٤م). [(٣)]

وأعاد نظام الملك النظر في النظام المالي للجيش، فاستبدل نظام العطاء (الرواتب) الذي عمل به في الدولة الإسلامية منذ زمن عمر بن الخطاب، بنظام الإقطاع العسكري. حيث أقطع أمراء الجيش أرض الخراج ليستغلوها، ويقدّم كل واحد منهم عدداً من الفرسان يتناسب مع حجم إقطاعه، لخدمة السلطان عند الحاجة، ذكر السبّكي: "أن نظام الملك هو أوّل من فرّق الإقطاعات على الجند، ولم يكن عادة السلاطين والخلفاء من لدن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، إلا أن تُجبى الأموال إلى الديوان، ثم تفرق العطايا على الأمراء والأجناد على حسب المقرر لهم"[(٤)]. وبّرر نظام الملك استحداثه نظام الإقطاع العسكري باتّساع مساحة الدولة وعدم القدرة على إعمارها وضبطها وفق نظام الجباية القديم. "فلما اتسعت مملكة نظام الملك، رأى أن يُسلّم كل مقطع قرية أو أكثر أو أقلّ على قدر إقطاعه، قال: فإن فيه إذا تسلّمها وليس له غيرها عمّرها، واعتنى بها، بخلاف ما إذا شمل الكل ديوان واحد، فإن الخرق يتّسع"[(٥)] ويشير السبّكي إلى نجاح نظام الإقطاع في عهد نظام الملك في تحقيق الغاية المرجوّة منه: "ففعل ذلك فكان سبب عمارة البلاد وكثرة الغلات، فتناقله الملوك بعده" [(٦)].

غير أن نظام الملك استبدّ بالحكم دون السلطان ملكشاه كما يفهم من قول ابن خلكان أنه لما مات ألب أرسلان وخلفه ابنه ملكشاه: "صار الأمر كلّه لنظام الملك وليس للسلطان إلاّ التخت والصيد، وأقام على هذا عشرين سنة"[(٧)] ويبدو أنه أحكم سيطرته على الدولة بتوزيع المناصب الهامة فيها على أبنائه وأصهاره، الأمر الذي أثار استياء السلطان وسخطه إذ قال لنظام الملك:

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٣، ص: ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٤٢.

الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، معد بن الظاهر بن الحاكم بأمر الله، ولد سنة ٤٢٠هـ، امتدت خلافته حوالي ستين عاماً (٤٢٧-٤٨٧هـ) وحدثت في خلافته الشدة العظمى في مصر حيث أصاب البلاد قحط لمدة تزيد على سبع سنوات. ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص: ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) السبكي، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٩.

(٥) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٩.

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٣٩.

(٧) ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٥.

"وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على إقليم كبير، ولا يكفيهم حتى تجاوزوا أمر السياسة".(١) وهو ما يؤكده الدكتور غلام حسين نقلاً عن مصادر فارسية إذ يقول: "كان لنظام الملك اثنا عشر ولداً، وعدد كبير من الأصهار وذوو القربى، وقد عهد إلى كل واحد من أبنائه وأقاربه وغلمانه بولاية أو حكومة، كما أنّه أوصل أنصاره إلى مصاف الجاه والنعمة، فكان سلطان السلاجقة من أقصاه إلى أقصاه تحت نفوذه، وكان أمره نافذاً في كل مكان" (٢).

وعمل على زيادة نفوذه أيضاً بعقد صلات قوية مع الخليفة العباسي: "كان يُعظّم أمر الخليفة، وكلمّا أراد السلطان نزع الخليفة منعه النظام، وأرسل إلى الخليفة في الباطن ينبهّه ويرشده إلى استمالة خاطر السلطان".(٣) فكسب بذلك ثقة الخليفة ودعمه، ومما يدل على ذلك قول الخليفة المقتدي بالله العباسي (٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤م) له "يا حسن بن علي رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك". (٤) ولما عزل الخليفة المقتدي وزيره عميد الدولة محمد بن جهير زوج صفية بنت نظام الملك من الوزارة شفع له نظام الملك عند الخليفة فأعيد إلى الوزارة(٥). وهذا يدل على مكانة نظام الملك عند الخليفة. وزاد من نفوذه أيضاً تأييد العلماء السنّة والطلاب في المدارس التي أنشأها في مختلف أرجاء الدولة السلجوقية لــه، بسبب ما أغدقه عليهم من رعاية واهتمام ورواتب ومخصصات"(٦).

ويعدّ كتابه (سياست نامة) خلاصة تجاربه في الإدارة والحكم، وقد ألّفه في أواخر حياته بناءً على طلب السلطان ملكشاه، الذي كلّف سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) عدداً من مشاهير دولته وحكمائها، أن ينظروا في أحوال المملكة السلجوقية، ويكتبوا له عن كل شيء غير محمود فيها، وأن يرفقوا بذلك ما يعرفونه من السنن الحميدة للملوك السابقين، ثم يعرضوها عليه ليتخذ منها دستوراً له. فقدّموا له عدة كتب اختار منها كتاب نظام الملك (سياست نامة)، وقال: " لقد اتخذت هذا الكتاب إماماً لي وعليه سأسير" (٧).

ويقع الكتاب في خمسين فصلاً تتناول كل الجوانب المتعلقة بإدارة الدولة، وما يجب على السلطان عمله للحفاظ على قوتها واستمرارها. فتحدث في الفصول الثمانية الأولى من الكتاب

---

(١) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٣.

(٢) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٤ (تصدير الكتاب).

(٣) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٤١.
نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٥-١٦(تصدير الكتاب)

(٥) ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (١٩٦٦م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، دار صادر، (بيروت-لبنان)، ص: ٢٩٧.

(6) Nizam al Mulk. Encyclopedia of religion.1987. vol.10. p: 459.

(٧) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٩-٢٠ (تصدير الكتاب).

عن ضرورة شكر السلطان لنعمة الحكم التي أنعم الله بها عليه، وذلك بإقامة العدل بين الرّعية ومنع المتنفذين في الدولة من ظلمها، ومن أجل ذلك فإن عليه أن يراقب سيرة عمّاله على الخراج والإقطاع والقضاء والشرطة، ويتأكد من عدم ظلمهم للرعية. ومثاله الأعلى في ذلك الحكام الساسانيين ولا سيما كسرى أنو شروان الذي يصفه في أكثر من مكان بالعادل (١). ويزعم أن ملوك الفرس خصصّوا يومي النيروز والمهرجان لسماع شكاوى الرّعية وانصافها، تحت عنوان " عدل ملوك العجم" (٢). ويورد أمثلة قليلة ونادرة على عدل العباسيين والغزنويين (٣). وتظهر من خلالها ميوله الشعوبية الواضحة.

وينصح نظام الملك في الفصول (٩-١٤) السلطان بالاعتماد على البريد والعيون لمعرفة أخبار رعيته وعماله من جهة، وأخبار أعدائه وتحركاتهم من جهة أخرى (٤). وتناول في الفصول من (١٥-١٨) رجال البلاط مثل الندماء والوكلاء والحكماء، فبيّن الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم، وقواعد السلوك والتعامل التي عليهم أن يلتزموا بها في أثناء المراسلة أو الخدمة(٥).

ويتحدث في الفصول من (١٩-٢٦) عن الجيش من حيث عناصره وأسلحته وأساليب قتاله، وتموينه وتمويله (٦).وهو ينصح السلطان بأن لا يعتمد على عنصر واحد في الجيش، وأن لا يعتمد على جيش مكون من عناصر متعددة، وأجناس مختلفة كالعرب والأتراك والفرس، حتى يأمن تمردّهم عليه، ويشيد بتجربة السلطان محمود الغزنوي في هذا المجال(٧). وكرر ذلك في الفصول (٣١-٣٣) حيث تحدث عن الجيش ومتطلباته ولا سيما من العدة وآلات الحرب (٨).

ويرى في الفصول (٢٧-٣٠) ضرورة وضع قواعد ومراسيم ثابتة للآداب والسلوك في البلاط، سواء كان ذلك في الخدمة أو الشراب أو المقابلات أو الوقوف بين يدي السلطان (٩).

وتحدث في الفصول من (٣٢-٣٩) عن كيفية معاملة السلطان أصحاب المقامات والرّتب العليا في الدولة (١٠).

---

(١) نظام الملك، سياست نامة، ص: ٦٠، ٦١.
(٢) المصدر نفسه، ص: ٦٩.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٧٥-٧٧.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٨٩-٩٠، ١٠٠.
(٥) المصدر نفسه، ص: ١١١، ١١٣ – ١١٤.
(٦) المصدر نفسه، ص: ١١٨، ١٢٥.
(٧) المصدر نفسه، ص: ١٢٦.
(٨) المصدر نفسه، ص: ١٤٦-١٤٧.
(٩) المصدر نفسه، ص: ١٣٠-١٣١.
(١٠) المصدر نفسه، ص: ١٤٩-١٥٢.

وخصص الفصل الثاني والأربعين للحديث عن موقع المرأة ودورها في البلاط [١]. وهو يرى أن تدخّل النساء في شؤون الحكم مدعاة إلى "زوال حرمة الملك وجلاله" واضطراب "أمور المملكة" [٢].

وخصص معظم الفصول الأحد عشر الأخيرة (٤٠-٥٠) للحديث عن الفرق المتطرفة في الإسلام، وفي مقدمتها الإسماعيلية بأشكالها وأسمائها المختلفة، التي اتهمها بالسعي للقضاء على الدولة، وهدم تعاليم الإسلام، وشبهها بالمزدكية التي سعت إلى تحطيم نظام الحكم الفارسي، وهدم دين المجوس بالكذب والخداع [٣]. وينصح السلطان بعدم استخدام الإسماعيلية في وظائف الدولة، ويتألم بسبب عدم استجابة السلطان لنصائحه، ويحذّره من العواقب فيقول: "سيتضح للملك في اليوم الذي أتنحى فيه جانباً فسادهم، وفكرهم وسوء فعلهم، وسيعلم أيضاً مدى ما كان لي من شفقة وهوى وميل في دولته القاهرة، وأنّي لم أكن بغافل وغير مطّلع على أحوال هذه الطائفة، وما كان يدور في خلدها، بل لقد كُنت أعرضها على الأعتاب السامية دائما، لكني لما رأيت أن أقوالي لم تكن تلقى لديه قبولاً، ولم يصدّقها عزفتُ عن تكريرها"[٤]. ويلاحظ من خلال مضمون كتابه في الحكم أن نظاماً سعى إلى طبع البلاط السلجوقي التركي السنّي بالطابع الفارسي الساساني الذي يراه مثالاً للعدل والنزاهة وحسن الإدارة، وهو بذلك يشبه في تجربته هذه محاولات البرامكة زمن الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) لصبغ الخلافة العباسية بالطابع الفارسي، والتي باءت بالفشل، وانتهى نظام الملك أيضاً إلى المصير ذاته، وهو الموت قتلاً على خلفية محاولاته تلك، ويتضمن كتابه حملة شديدة على فرقة الإسماعيلية الباطنية الذين يعتبرهم أعداء الدولة والإسلام، وإشادة بالمذاهب السنية الشافعية والحنفية.

ويذكر عبد الهادي محبوبة أن هناك كتاباً آخر غير منشور ينسب لنظام الملك هو: "كتاب الوصايا" التي خطها في آخر سني حياته لابنه فخر الملك* أحب أبنائه إليه. وقد جمعها أحد أحفاده في القرن التاسع الهجري. ويتألف الكتاب من مقدمة وفصلين، اشتملت المقدمة على سيرة موجزة لنظام الملك [٥].

---

(١) نظام الملك، سياست نامة، ص: ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢١٢- ٢١٥.

(٤) المصدر نفسه، ٢١٣.

* أبو المظفر فخر الملك علي بن الحسن (ت: ٤٣٤-٥٠٠هـ)، (١٠٤٢-١١٠٦م)، هو الابن الأكبر لنظام الملك الطوسي، تولى الوزارة للسلطان بركياروق سنة ٤٨٨هـ، ثم فارقه قاصداً نيسابور، فاستوزره صاحبها سُنْجُر، فاغتاله فيها أحد الباطنية، ينظر الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين (بيروت-لبنان) ج٤، ص: ٢٧٣.

(٥) عبد الهادي محبوبة، (١٩٩٩م)، نظام الملك، دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره، ص: ٤٨٧، ٤٩٦.

ويستهل الفصل الأول منه بنقل أحاسيسه لإبنه فخر الملك بدنو أجله وأن عاطفة الأبوة لديه تدفعه إلى تقديم النصيحة له رغم شكه في قبول الأخير لها، ويصدّر تلك النصائح لابنه برفض منصب الوزارة إن عُرضت عليه لما يحيط بهذا المنصب من مخاطر ومشاكل في مقدمتها؛ مشكلة إرضاء السلطان التي تكاد تكون مستحيلة، ومخاطرة إغضاب أولاد السلاطين وعواقبها. ويُعزّز ذلك بأمثلة حية جرت له شخصياً مع أبناء السلاطين. ومخاطرة التعامل مع كبار رجال الدولة والتوفيق بين كسب ودّهم ورضا السلطان في الوقت نفسه، ويحضه على ضرورة التعاون مع طبقة الكتاب وأرباب الأعمال الذين لا تستقيم الأمور إلا بهم. وينهاه عن اسناد الأمور إلى الأقارب والإتباع، وذكره بمعاناته شخصياً من هذا الأمر حيث ولى أبناءَه الأقاليم لكفاءتهم وأمانتهم، فاتهمه منافسوه ومبغضوه وعلى رأسهم زوجة السلطان، بأنه قسم الأمصار بين أولاده واستبد بالأمر دون السلطان. فهو يرى أن تفويض الأمور إلى الأقرباء مدعاة للاتهام، وإن كان لا يسلم إن ولاها للغرباء لأنه سيتهم بالتآمر لقلب الحكم [١].

ويتحدث في الفصل الثاني من الوصايا عن آداب الوزير وواجباته وصفاته ويجملها في نقاط أربعة هي: رعاية جانب الله ومخافته في السر والعلن، والحرص على طاعته، ثم رعاية جانب السلطان وطاعته، وطلب رضاه بعد رضا الله، ورعاية المقربين منه وفي مقدمتهم أزواجه وأهل بيته وقواده وأمرائه من أصحاب السيف والقلم، لأن أكثر الفساد يأتي منهم، ورعاية جانب الرعية من خلال تذكير السلطان بالرأفة بها، وتوفير أسباب الرفاهية لها مما يكسبه رضا الله ومحبة الناس [٢]. وإضافة إلى الكتابين السابقين فهناك بعض الرسائل وجهها نظام لابنائه وأصحابه وللسلطان ملكشاه [٣].

دوره في الحياة العلمية

إن نشأة نظام الملك العلمية وثقافته الواسعة جعلته يولى العلم والعلماء عناية خاصة، وتمثل ذلك في تقريبه للعلماء وإكرامهم، وفي بناء المدارس وإنشاء المكتبات، ووقف الأوقاف عليها من أجل توفير نفقاتها، يشهد بذلك ما قاله أبو الوفا ابن عقيل أحد المعاصرين له: "رأينا في أوائل أعمارنا ناساً طاب العيش معهم من العلماء والزّهاد وأعيان الناس، وأما النظام فإن سيرته بهرت العقول جوداً وكرماً وحشمة وإحياءً لمعالم الدين فبنى المدارس، ووقف عليها الوقوف ونعش العلم وأهله، وعمّر الحرمين، وعمّر دور الكتب وابتاع الكتب، فكانت سوق العلم في أيامه قائمة والعلماء مستطلين على الصدور من أبناء الدنيا" [٤]. ويؤيده ابن الجوزي الذي يعدد مناقب نظام

---

(١) عبد الهادي محبوبة، نظام الملك، ص: ٤٩٨-٥٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٥٠٠-٥٠٦.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٥١١.

(٤) ابن الجوزي، (١٣٥٩هـ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧-٦٨.

الملك وعلى رأسها اهتمامه بالعلم والعلماء فيقول: "وأحسن خلاله مراعاة العلماء وترتيبه العلم، وبناء المدارس والمساجد والرباطات والوقوف عليها" (١).

ومن مظاهر إكرامه للعلماء أنه أبطل عادة لعن الأشاعرة التي سنّها الوزير عميد الملك الكندري أيام السلطان طغرل بك، وأعاد العلماء الذين غادروا بلادهم جرّاء تلك السياسة إليها، قال ابن الأثير: "كان الوزير عميد الملك الكندري قد حسّن للسلطان طغرل بك التقدّم بلعن الرافضة (الشيعة) فأمره بذلك، فأضاف إليهم الأشعرية، ولعن الجميع، فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين، وأبي القاسم القشيري* وغيرهما". فلما وليّ ألب أرسلان السلطنة أسقط نظام الملك ذلك جميعه، وأعاد العلماء إلى أوطانهم" (٢). وظلّ مجلسه منذ توليه الوزارة عامراً بالفقهاء والصوفية وأئمة المسلمين وأهل التدين، الأمر الذي لم يتحقق لغيره من الوزراء على حدّ قول السبّكي: "ولم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وتردادهم إلى بابه.يحضر سماطه مثل أبي القاسم القشيري وأبي اسحق الشيرازي**، وإمام الحرمين وغيرهم" (٣).وحرص على احترام وإكرام من حضر مجلسه منهم، فكان إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني* إمام الحرمين: "بالغ في إكرامهما وأجلسهما في مسنده" (٤). وإذا دخل عليه أبو علي الفارماذي: "يقوم إليه ويجلسه في مكانه، ويجلس هو بين يديه زيادة في إكرامه" (٥). وردّ على من لامه على طول مجالسته لهم بحجة أنهم يشغلونه عن القيام بمهام الدولة، قائلاً: "هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة" (٦).

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص: ٦٥.

* أبو القاسم القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري (٣٧٦-٤٦٥هـ) من علماء الحديث والفقه والتفسير كان شيخ خراسان في عصره، ومقرباً من السلطان ألب أرسلان وله عدة كتب في التفسير وعلم الحديث أقام في نيسابور وتوفي فيها.

(٢) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨١.

ينظر، الزركلي، خير الدين (١٩٩٢)، الاعلام،، ج٤، ص: ٥٧.

** أبو اسحق الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (٣٩٣/٤٤٦هـ) ولد بفيروز آباد سنة ٣٩٣هـ، ثم انتقل إلى بغداد وتفقه على يد علمائها واستقر فيها، وصنف العديد من الكتب في الفقه وعلم الكلام، واشتهر بورعه وزهده، عرض عليه نظام الملك نظارة المدرسة النظامية ببغداد فرفض، وتوفي ببغداد سنة ٤٤٦هـ.ينظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١، ص: ٢٩-٣١.

(٣) السبّكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٧.

(٤) ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٦.

(٥) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨١.

(٦) ابن الجوزي، (١٣٥٩هـ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٥.

ورغم انشغاله بأعباء الحكم ظل يحرص على حضور مجالس العلم وسماع المناظرات والمناقشات العلمية، وذكر السّبكي أن نظام الملك زار بغداد مرتين كان خلالهما: "يحضر الناس ويُقرأ بين يديه جزء من الحديث على شيخ عالي الإسناد، ويُكرمه ويُجلسه إلى جانبه، ويتكلم الفقهاء في المسائل، ويقعد نظام الملك مطأطئ الرأس، وهو يسمع جميع ما يجري في المجلس"(١).

وهدف نظام الملك من رعاية علماء السنّة تشجيع العلم من جهة، ومن جهة أخرى الحصول على دعم هؤلاء العلماء من الشافعية والصوفية له ضد الرافضة (الشيعة) عامة والإسماعيلية خاصة (٢). وقد حققوا له غايته بالفعل من خلال "ثنائهم على عدله وتصنيفهم الكتب باسمه" (٣). وبإشادتهم بفضله وعدله في الرّعية وخدمته للإسلام كما كان يفعل إمام الحرمين أبو المعالي الجويني في خطبه" (٤).

ومن مظاهر تشجيعه للحركة العلمية بناء المدارس، فقد ذكر ابن خلكان أن "نظام الملك هو أوّل من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس" (٥) لكن السّبكي والمقريزي يؤكدان أن أهل نيسابور سبقوه إلى ذلك، وأنهم بنوا عدة مدارس قبل ولادة نظام الملك (٦). ولعل أهم ما قام به نظام الملك في هذا المجال هو نشره نظام المدارس في كل المناطق التابعة للسلطنة السلجوقية كما قال ابن الأثير: "أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد" (٧). ويؤيد ذلك قول السبكي أن نظام الملك: "بنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة، مدرسة بأصفهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة" (٨). كما أنه استحدث نظاماً جديداً في حقل التربية والتعليم هو صرف المخصصات للطلاب فضلاً عن المدرّسين، وتوفير السكن والخدمات لهم، فقد ذكر السّبكي أن نظام الملك "أوّل من قدّر المعاليم للطلبة" (٩). ويؤكد ذلك قول ابن الأثير

(١) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤١.

(2) Nizam al mulk. (1987). Encyclopedia of religion. vol. 10. p: 458.

(٣) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٣٨.

(٥) ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٦.

(٦) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٧. المقريزي، (١٩٧٠م)، الخطط، ج٢، ص: ٣٦٣.

(٧) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨١.

(٨) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٣٧.

(٩) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٣٧.

إن المدرسة النظامية ببغداد: "أول مدرسة قرّر فيها للفقهاء معاليم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك" (١).

وهَدَفَ نظام الملك من تأسيس المدارس النظامية، والإنفاق عليها واختيار طلابها ومدرّسيها، ووضع البرامج الدراسية لها، إلى تقوية المذهب السنّي وتمكينه من مقاومة الدعاية الشيعية (الإسماعيلية)، وإيجاد طبقة من الإداريين السنّة الأكفاء، والثقات لشغل مناصب الدولة ولا سيّما الدينية منها: هذا فضلاً عن تخصيص أجنحة فيها لإيواء الفقراء وتقديم المساعدات لهم(٢). وعلاوة على ذلك فإن إنشاءه لنظام المدارس يؤدي بصورة غير مباشرة إلى تقوية نفوذه بين المدرسين والطلبة، بما يقدمه لهم من رواتب وخدمات. خاصة أنّه ولّى أبناءَه وأنصاره إدارتها، وأعطاهم الحق في تعيين المدرّسين فيها، فأداروها وفق أرائه وتوجيهاته، فكان نظام التعليم كغيره من مؤسسات الدولة السلجوقية الأخرى يدار وفق مشيئته طوال مدّة وزارته (٣).

وأدى قصر التعليم في مدارسه على المذهب الشافعي، وغلق الأبواب أمام الطلاب والمدرّسين من المذاهب والفرق الأخرى ولاسيما الشيعة، إلى قيام تلك المذاهب والفرق بتأسيس مدارس خاصة بها، متهمة نظام الملك بأنه أسهم بذلك في زيادة التعصب المذهبي (٤). ومن أشهر المدارس التي أنشأها نظامية نيسابور ونظامية بغداد، فقد بلغ عدد طلاب مدرسة نيسابور ثلاثمائة طالب. ومن أشهر مدرّسيها إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبدالله الجويني (ت: ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، وأشهر تلاميذها الإمام أبو حامد الغزالي (٥). وبعد تخرجه منها عيّنه نظام الملك مدرّساً في نظامية بغداد سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م)، ذكر ابن تغري بردي أنه في تلك السنّة: "قدم أبو حامد الغزالي بغداد مدرّساً بالنظامية ومعه توقيع نظام الملك" (٦).

أما نظامية بغداد فقد استغرق بناؤها سنتين، إذ شرع في بنائها سنة (٤٥٧هـ/١٠٦٤م)، وفُرغ منه سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) (٧). وأشهر مدرّسيها الشيخ أبو اسحق الشيرازي (ت:

(١) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨١.

(2) Nizam al mulk. (1986). Encyclopedia Britanica. vol. 8. p. 733.

(٣) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٥-١٦ (تصدير الكتاب).

(٤) المصدر نفسه، ص: ١٦٠.

(٥) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٤ (تصدير الكتاب).

(٦) ابن تغري بردي، (ب.ت)، النجوم الزاهرة، ج٥، ص: ١٣٢.

(٧) ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٦.

٤٧٦هـ/١٠٨٣م) (١). والإمام الغزالي، وكان عدد طلاّبها ستة آلاف طالب يدرسون فيها النحو واللغة والأدب والفقه والحديث والقرآن وغير ذلك من العلوم الشرعية والعلوم المساندة لها (٢).

وقد وقفها نظام الملك على الشافعية، وشرط أن يكون مدرسوها وتلاميذها أيضاً من الشافعية، كما يذكر ابن الجوزي: " وفي كتاب شرطها {نظامية بغداد} أنها وقف على أصحاب الإمام الشافعي أصلاً وفرعاً، وكذلك الأموال الموقوفة عليها شرط فيها أن تكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً، وكذلك شرط المدرّس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها..." (٣) جعل فيها مكتبة قيّمة وأساتذة ومُعيدين وكتبة وخدماً وحراساً وخصص لها أوقافاً كثيرة من أسواق وحمامات ودكاكين وضياع لتأمين دفع نفقاتها، وأجور العاملين فيها، ونفقات الطلاب، التي بلغ مجموعها خمسة عشر ألف دينار سنوياً (٤).

وشجع نظام الملك أيضاً الأبحاث العلمية التطبيقية، فقد استقدم نظام عالم الرياضيات المشهور عمر بن الخيام* للعمل في بلاط ألب أرسلان، وقدّم له مرصداً فلكياً يعدّ من أحدث المراصد الفلكية في عصره، فاخترع التقويم السلجوقي أو الجلالي، الذي عَمل به ابتداءً من عام (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) (٥).

وأسهم نظام الملك شخصياً مع طبقة الكتاب التي ينتمي إليها في تطوير الأدبين العربي والفارسي، من خلال كتابه (سياست نامة) الذي يُعدّ من أفضل الأعمال النثرية المكتوبة بالفارسية المتبقية من تلك الحقبة (٦). ومن خلال (كتابه الوصايا) الذي أجمل فيه خلاصة تجاربه في الحياة والحكم على شكل نصائح ووصايا لابنه فخر الملك (٧). ورسائله إلى أبنائه وأصدقائه والسلطان ملشكاه (٨).

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٢٩٦. ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٣.

(٢) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٤. سعيد الديوه جي، (١٩٨١م)، التربية والتعليم في الاسلام، مطابع جامعة الموصل، (الموصل–العراق)، ص: ١٠٦.

(٣) ابن الجوزي، (١٣٥٩هــ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٦

(٤) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٤ (تصدير الكتاب).

* عمر الخيام (ت: ٥١٥هــ/١١٢١م): هو عمر بن إبراهيم النيسابوري، شاعر وفيلسوف، وعالم رياضيات وفلكي فارسي. ينظر الزركلي (١٩٩٢م) الأعلام، ج٥، ص: ١٣٨.

(٥) تامارا رايس، (١٩٦٨م)، السلاجقة، ص: ١٤٦.

(6) Encyclopedia of religion. (1987). vol. 10. p 459.

(٧) عبد الهادي محبوبه (١٩٩٩م)، نظام الملك، ص: ٤٨٧ وما بعدها.

(٨) المرجع نفسه، ص: ٥١١.

اغتياله

قتل نظام الملك في العاشر من رمضان سنة (٤٨٥ هـ/١٠٩٢م) بالقرب من نهاوند* وهو خارج مع السلطان من أصفهان إلى بغداد، حيث اعترضه ديلمي على هيئة صوفي وبيده ظلامة، فلما استدناه نظام ليسمع شكواه، طعنه ذلك الديلمي بسكين في فؤاده فقتله، وعثر القاتل بطنب خيمة فأدركه غلمان نظام الملك وقتلوه (١). وحمل جثمانه إلى أصفهان فدفن هناك في تربة المدرسة التي أسسها. (٢) وكان عمره عند الوفاة حوالي سبع وسبعين سنة (٣).

وقد اختلف في تحديد الجهة التي تقف وراء عملية الاغتيال ودوافعها، فهناك من قال أن السلطان ملكشاه ** هو الذي دبر مقتله، لأسباب عدّة منها: أن السلطان سئم طول عمر نظام الملك، وتبذيره لأموال الدولة (٤). وضجر من استبداد نظام الملك وأولاده بأمور الحكم والدولة، فقد ذكر ابن خلدون "أن السلطان ملكشاه وضع الباطني على قتله لما وقع منه ومن بني بنيه من الدالة والتحكم في الدولة".(٥) ومن مظاهر تنفذ نظام الملك وأبنائه وسوء تصرفهم التي أثارت حفيظة السلطان وغضبه، قيام جمال الملك بن النظام بقتل بعض حواشي السلطان، فدّس له

* نهاوند: إحدى مدن الجبل في اقليم فارس حدثت فيها معركة مشهورة بين المسلمين والفرس سنة ٢١هـ وسميت بفتح الفتوح لأنه لم تقم للفرس بعدها قائمة. ينظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص: ٣١٣-٣١٤.

(١) ابن الجوزي، (١٩٤٠مـ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٦. ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٧٨. ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٧.

(٢) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٤، عبد الهادي محبوبة (١٩٩٩)، نظام الملك، ص: ٥٧٠-٥٧١.

(٣) ابن الجوزي، (١٩٤٠م)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧. السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٤.

** السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي (٤٤٧-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) تولى السلطنة بوصية من أبيه، وهو صهر الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله، حيث زوج ابنته للخليفة المذكور سنة ٤٨٠هـ، فولدت للخليفة ابنة أبو الفضل جعفر، ولما بايع الخليفة لابنه الأكبر المستظهر بولاية العهد احتج ملكشاه على ذلك، والزم الخليفة بخلع المستظهر وتعيين ابن بنته جعفر وليا للعهد، وأن يسلم بغداد إليه، ويخرج إلى البصرة، لكن ملكشاه توفي بعد ذلك بأيام ولم يخرج الخليفة من بغداد. ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص: ٢٨٣-٢٨٩.

(٤) ابن الجوزي، (١٩٤٠م)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧.

(٥) ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.

الأخير من سمّه.[(١)] ثم قيام حفيده عثمان بن جمال الملك حاكم مرو بإهانة الشحنة (رئيس الشرطة) الذي أرسله السلطان إلى المدينة حيث قام بضربه وسجنه. [(٢)] وقد عبّر السلطان عن استيائه وغضبه من هذه التصرفات في رسالة بعث بها إلى نظام الملك مع بعض مستشاريه يقول فيها "إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم، وإن كنت تابعي فالزم حدّك، وهؤلاء أولادك قد استولوا على الدنيا، ولا يقنعهم ذلك حتى يخرجوا من الحرمة" [(٣)] وبدلا من أن يستجيب نظام الملك لطلب السلطان بالحد من استبداده هو وأولاد بالسلطة، رد على رسل السلطان بجواب غليظ قال فيه: "أما علم أني شريكه في الملك، وأنه ما بلغ ما بلغ إلا بتدبيري، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف جمعت الناس عليه" [(٤)]. وهدده السلطان بالعزل "إن تشأ آمر بنزع الدواة من أمامك" فردّ عليه نظام الملك قائلاً "إن ذلك التاج منوط بتلك الدواة فأنّى ترفعها يُرفع" [(٥)] فغضب السلطان من نظام الملك وسعى في تدبير مقتله كما يقول ابن الأثير: "وقع التدبير عليه (نظام) حتى تمّ عليه من القتل ما تمّ" [(٦)].

ومن بين الأسباب التي دفعت السلطان إلى التخلص منه سعاية حساد نظام الملك ومنافسيه به إلى السلطان حتى أوغروا صدره عليه، فدسّ له من قتله، وتركزت وشاياتهم به على أن نظام الملك وأبناءه استبدوا بالسلطة دونه، وأنهم بَدّروا أموال الدولة على أنصارهم ومصالحهم الشخصية. ومن هؤلاء الحساد أبو المحاسن بن كمال الملك صاحب ديوان الإنشاء، الذي عرض على السلطان أن يدفع له مبلغ مليون دينار مقابل تسليم نظام الملك إليه، بحجة أن نظام الملك وأولاده بَدّدوا أموال الدولة: " أيها الملك سلّم إلي نظام وأنا أعطيك ألف ألف دينار، فإنهم قد أكلوا البلاد" [(٧)]. وعلم نظام بالمكيدة، وبين للسلطان أنه ينفق تلك الأموال على مصالح الدولة، كالجيش والمدارس والمساجد، التي تجلب الثناء والحمد والثواب للسلطان. [(٨)] وبذلك تخلص من هذه المكيدة.

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.

(٢) ابن الجوزي، (١٩٤٠م)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧. ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٧٨- ٤٧٩.

(٣) ابن الجوزي، (١٩٤٠م)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧.

(٤) ابن الجوزي، (١٣٥٩هـ)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧.

(٥) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٧-١٨.

(٦) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٧٩.

(٧) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٣- ١٤٤.

(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص: ١٤٣-١٤٤.

ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص: ٢١٤-٢١٥، ابن خلكان، وفيات ج١، ص: ٢٦٨.

ومن حساده ومبغضيه تركان خاتون زوجة السلطان ملك شاه التي رغبت في جعل ولاية العهد لابنها الصغير محمود، فعارض نظام رغبتها في ذلك. ومال إلى تعيين بركياروق بن زبيدة، الابن الأكبر للسلطان (١) لأن مصلحة الدولة تتطلب ذلك. مما جعل تركان خاتون تسعى للإطاحة بوزارة نظام الملك، واستبدالها بوزارة يتولاها منافسه تاج الملك القمّي (٤٨٦هـ/١٠٩٣م)* الذي انحاز إلى موقفها. وقد تولى تاج الملك الوزارة بعد مقتل نظام، فقام الغلمان النظامية بقتله انتقاماً لسيدهم لاعتقادهم أن تاج الملك شارك في تدبير مقتله (٢).

وقد أكدّ ذلك أيضاً الدكتور غلام حسين نقلاً عن مصادر فارسية، حيث ذكر في تصديره (للسياست نامة)، أن منافسي نظام الملك وحساده أوغروا صدر السلطان عليه، بحجة أن نظام سلّم أولاده وأعوانه زمام الأمور في الدولة، وأنه لم يبق بيد السلطان شيئاً من السلطة، وكان في كلامهم شيء من الواقع، فراح السلطان يعزل أنصار نظام الملك من مناصبهم أوّلاً بأوّل، وصار يعزو أي ظلم يقع بحق متظلم إلى نظام الملك وأعوانه " (٣).

وهناك من يقول بأن السلطان ملكشاه دسّ إليه من قتله لأنه وقف ضد رغبته في عزل الخليفة العباسي المقتدي بالله (٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤م) (٤) فكان يُطلع الخليفة في السّر

---

(١) السلطان بركياروق بن السلطان ملكشاه (٤٧٤-٤٩٨هـ) وهو الابن الأكبر للسلطان ملكشاه وأمه زبية ابنة ياقوتي بن داود ابنة عم السلطان ملكشاه، ولد سنة ٤٧٤هـ، وكان نظام الملك وأنصاره يميلون إلى تعيينه سلطاناً بعد أبيه، في حين كان محمود بن ملكشاه هو الابن الأصغر للسلطان، وقد حاولت أمه تركان خاتون تولية ابنها عرش السلطنة لكنها فشلت، وتولاها بركايورق بدعم من المماليك النظامية وحكم مدة ١٢ سنة وشهراً، إلى أن توفي سنة ٤٩٨هـ.

* الوزير تاج الملك القمي أبو الغنائم بن دارست، (ت: ٤٨٦هـ/١٠٩٣م) كان من منافسي نظام الملك وحساده ومن المقربين إلى تركان خاتون ويسعى معها إلى تعيين ابنها محمود سلطاناً بعد أبيه، وقد اتهمه المماليك النظامية بأن له دوراً في اغتيال سيدهم، فقتلوه في شهر محرم سنة ٤٨٦هـ. ينظر ابن الاثير، (١٩٩٧م) الكامل في التاريخ، ج١٠، ص: ٢١٦. ابن خلكان، وفيا الأعيان، ج٤، ص: ٤٥٣.

(٢) ابن الجوزي، (١٩٤٠م)، المنتظم، ج٩، ص: ٦٧. ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج٨، ص: ٤٨٠، وينظر نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٦.

(٣) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ١٧، (تصدير الكتاب).

(٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر (٩١١هـ/١٥٠٥م). تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعاد (القاهرة-مصر)، ص: ٤٢٣-٤٢٥.

الخليفة المقتدي بأمر الله، أبو القاسم عبدالله بن محمد تولى الخلافة وعمره ١٩ سنة، كان ميالاً للشافعية والأشاعرة، وامتدت خلافته عشرين عاماً (٤٦٧-٤٨٧هـ) ونشبت خلالها الفتن بين الحنابلة والشافعية ببغداد، حاول السلطان ملكشاه خلعه من الخلافة لكنه توفي قبل أن يتم له ذلك.

على نوايا السلطان تجاهه، وأن نظاماً حال بين السلطان وبين تحقيق تلك الرغبة منذ سنة (٤٧٥هـ)، وعندما خرج السلطان سنة (٤٨٥هـ) إلى بغداد "عازماً على تغيير الخليفة وعرف أن ذلك لا يتمّ له ونظام الملك في الحياة، فعمل على قتله قبل الوصول إلى بغداد" (١). وبعد مقتل نظام الملك ووصول السلطان ملكشاه إلى بغداد طالب الأخير الخليفة بالاعتزال من منصبه ومغادرة بغداد فوراً، لكنه توفي قبل أن يتم له ذلك، ذكر ابن تغري بردي أن السلطان ملكشاه توجه من أصفهان إلى بغداد " بنيّة غير مرضية في حق الخليفة المقتدي بأمر الله، وكان معه وزيره نظام الملك، فقتل في شهر رمضان في الطريق... ووصل ملكشاه إلى بغداد في الثامن عشر من شهر رمضان، فأول ما وصل بعث يقول للخليفة: لا بد أن تترك بغداد وتذهب إلى أي بلد شئت، فانزعج الخليفة وبعث إليه يقول: أمهلني شهراً فقال: ولا ساعة" (٢). ثم أمهله بعد وساطة تاج الملك عشرة أيام، فمات السلطان قبل أن يتم عزل الخليفة.

وذهب قسم آخر من الروايات التاريخية إلى القول بأن الباطنية أو الحشاشين هم الذين دسوا إلى نظام الملك من قتله (٣). ويميل السبّكي إلى ترجيح هذا الرأي على الرأي القائل بأن السلطان هو الذي دبر مقتله، فيقول: "وهذا القول هو الأقرب عندي إلى الصحة" (٤). ويعزو سبب قتلهم له إلى محاربته لفرقة الحشاشين، وهجومه على معقلهم في قلعة الموت، عندما بلغه أن زعيمهم الحسن ابن الصباح (٥) يدعو إلى إمامة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-

---

(١) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٣.

(٢) ابن تغري بردي، (ب.ت)، النجوم الزاهرة، ج٥، ص: ١٣٤.

(٣) ابن الأثير، (١٩٨٧م)، الكامل في التاريخ، ج، ٨ ص: ٤٧٨. ابن خلكان، (١٩٤٨م)، وفيات الأعيان، ج١، ص: ٣٩٦. الذهبي، (١٩٨٤م)، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص: السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣ ص: ١٤٢ .
ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.

(٤) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٢-١٤٣.

(٥) عبد الهادي محبوبة (١٩٩٩) نظام الملك، ٣١٢-٣١٤ الحسن بن الصباح: هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحميدي اليمني، وقيل ولد بالري سنة ٤٣هـ لأب شيعي ورث عنه مذهب الاثني عشرية، ثم تحول إلى المذهب الاسماعيلي على يد داعيها في الري عبد الملك بن عطاش، ثم انتقل إلى أصفهان سنة ٤٦٧هـ، وأقام فيها قرابة ٣ سنوات التقى خلالها بنظام الملك، وزار مصر سنة ٤٧١هـ والتقى بالخليفة المستنصر الفاطمي، ثم عاد إلى خراسان واستولى على قلعة الموت سنة ٤٧٨م، وأسس فرقة الحشاشين فيها، عندما حاول السلطان ملكشاه احتلال القلعة بتحريض من وزيره نظام الملك، قام حسن بن الصباح باغتيال الوزير بعد أن فشلت المراسلات بين الطرفين في اقناع الحسن بن الصبح بالعدول عن رأي فرقة الإسماعيلية وظل مقيماً في قلعة الموت إلى أن توفي سنة ٥١٨هـ.

١٠٩٤م)، وأنه استولى على قلعة الموت: "فبلغ ذلك نظام الملك فأرسل له عسكراً ضايقوه، فبعث ابن الصباح لما علم أنه لا قبل له بنظام الملك، من قتل نظام الملك، وصار الإقدام على القتل سنة عند الباطنية واستفحل أمرهم " (١). وتشير رواية ابن خلدون إلى وجود تنسيق بين السلطان والإسماعيلية في تنفيذ عملية الاغتيال، حيث ذكر أن السلطان دسّ ذلك الباطني لقتل نظام الملك (٢). ويشكو نظام الملك نفسه في الفصول الأخيرة من كتابه، (سياست نامة)، من عدم استجابة السلطان لنصائحه بخصوص عدم استخدام الباطنية في وظائف الدولة، ويحذّره من عواقب ذلك على الدولة والإسلام (٣).

ويلاحظ مما مرّ أن مقتل نظام الملك كان من مصلحة الطرفين المتهمين بعملية القتل، وهما السلطان ملكشاه والإسماعيلية، والأرجح أن السلطان هو الذي دبر مقتله، وذلك بسبب استئثار نظام الملك بالمال والسلطة دونه وتحالفه مع الخليفة العباسي ضد السلطان. ومما يرجح هذا الرأي، أن السلطان وأعوانه وعلى رأسهم تاج الملك القمّي هم من دبرّوا اغتياله، قيام المماليك النظامية بتعقب تاج الملك وقتله لاتهامهم إياه بقتل سيدهم (٤). وأن هناك محاولات سابقة للسلطان جند فيها بعض موظفي البلاط لاغتيال نظام الملك منها، محاولة ابن بهمنيار الفاشلة سنة (٤٧٣هـ/١٠٨٠م) والتي أتهم فيها مضحك البلاط جفرك وتم إعدامه من قبل السلطان (٥). للتغطية على الرأس المدبر للعملية.

الخاتمة

نشأ نظام الملك فقيراً يتيماً لأب عمل جابياً للضرائب في الإدارة الغزنوية، إلا أن ذكاءه وعلمه وخبرته مكنتّه من ارتقاء درجات السلّم الإداري إلى أن وصل إلى سدّة الوزارة التي ظلّ فيها مدة ثلاثين عاماً، حقق خلالها الكثير من المنجزات الإدارية والعلمية، فعلى الصعيد الإداري عمل على تحقيق العدل بين الرّعية من خلال جلوسه للمظالم وإلغاء المكوس، وساهم في إنشاء بعض الفرق العسكرية، واستحدث نظام الإقطاع العسكري بدلاً من نظام العطاء (الرواتب) الذي كان معمولاً به في الدولة منذ خلافة عمر بن الخطاب، وتوج عمله الإداري بكتابه (سياست نامة)، الذي ضمنّه أراءه وتجربته في الإدارة والحكم. وعلى الصعيد العلمي، شجع الحركة العلمية من خلال تقريبه العلماء وتكريمهم، ومن خلال إنشائه للمدارس النظامية في المدن التابعة للدولة السلجوقية.

---

(١) السبكي، (ب.ت)، طبقات الشافعية، ج٣، ص: ١٤٢-١٤٣.

(٢) ابن خلدون، (١٩٧١م)، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص: ١٢.

(٣) نظام الملك، (ب.ت)، سياست نامة، ص: ٢١٣.

(4) H. Bowen. (1999). Nizam al-Mulk. http.www.muslim philosophy.com, p5. from *the Encyclopedia of Islam*, vol 8, brill, (Leiden Netherlands)

(5) H. Bowen. (1999). Nizam al-Mulk. http.www.muslim philosophy.com. p 5

لكن استبداده بالسلطة هو وأبناؤه وأقاربه دون السلطان السلجوقي أوغر صدر الأخير عليه، وأسهم حساده ومنافسيه في زيادة تشويه صورته عند السلطان من خلال اتهامهم لنظام الملك بتبذير أموال الدولة والانفراد بالسلطة، وزاد الأمر سوءاً اصطدامه بالإسماعيلية الذين اعتبرهم العدو الرئيسي للدين والدولة، فسعى السلطان والإسماعيلية للتخلّص منه، وكان لكل منهما أسبابه ودوافعه، غير أن النتيجة كانت واحدة هي مقتله في ظروف غامضة بتدبير من السلطان وحاشيته.

فكانت تجربته شبيهة إلى حد ما بتجربة البرامكة مع الرشيد، واختلف الناس في نظرتهم إليه كما اختلفوا في النظر إلى البرامكة، ففي الوقت الذي رأى فيه أنصاره من السنّة بأنه مثال المؤمن الورع التقي العادل، رأى فيه خصومه من الإسماعيلية والشيعة بشكل عام وزيراً ظالماً متعصباً، زاد من الفرقة بين المسلمين بنشره التعصب المذهبي، ونظر إليه السلطان السلجوقي ملكشاه كوزير خارج عن طاعته مستأثراً بالمال والسلطة دونه. إلا أنه يختلف عنهم بأن السلطان لم يصادر أمواله ولم يلاحق أبناءه وأن السلطان لم يعلن مسؤوليته عن قتل نظام الملك كما فعل الرشيد بالبرامكة.

المصادر والمراجع

أ. المصادر

- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني. (ت: ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)، (١٩٨٧م). الكامل في التاريخ. ج٨. دار الكتب العلمية، ط١. (بيروت- لبنان)
- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله. (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، (ب.ت). "رحلة ابن بطوطة". دار صادر، (بيروت- لبنان).
- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف. (ت: ٨٧٤ هـ)، (١٤٦٩م). (ب. ت). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج٥. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة- مصر)
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (ت: ٥٩٧ هـ/١٢٠٩م)، (١٩٤٠م). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج٩. مطبعة دائرة المعارف العثمانية. (حيدر آباد الدكن - الهند).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. (ت: ٨٠٨ هـ/١٤٠٥م)، (١٩٧١م). تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج٥. (بيروت – لبنان).
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد. (ت: ٦٨١هـ /١٢٨٢م)، (١٩٤٨م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ج٨. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة- مصر).
- الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف. (ب.ت). مفاتيح العلوم. دار الكتب العلمية. (بيروت- لبنان).

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. (ت: ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م)، (١٩٨٤م). سير أعلام النبلاء. ج١٩. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، (بيروت - لبنان).
- السبّكي، عبد الوهاب بن تقي الدين. (ت: ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، (ب. ت). طبقات الشافعية الكبرى. ج٣. المطبعة الحسينية، (القاهرة- مصر).
- السيوطي،عبد الرحمن بن أبي بكر. (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م)، (١٩٥٢م). تاريخ الخلفاء. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة، (القاهرة-مصر).
- ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا. (١٩٦٦م). الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية. دار صادر، (بيروت- لبنان).
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر. (ت: ٧٧٤ هـ /١٣٧٢م)، (١٩٧٧م). البداية والنهاية. ج١٢. مكتبة المعارف، ط٢. (بيروت- لبنان).
- المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي. (ت: ٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، (١٣٦٩هـ/١٩٥٠م). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. تحقيق: مصطفى السقا. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. (القاهرة-مصر).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (ت: ٨٤٥ هـ/١٤٤١م)، (١٩٧٠م). الخطط المقريزية، ج٢. مكتبة المثنى، (بغداد - العراق).
- نظام الملك، الحسن بن علي الطوسي. (ت: ٤٨٥هـ/(١٠٩٢م)، (ب.ت). سياست نامة، أو سير الملوك. ترجمة: د. يوسف حسين بكار. دار القدس، (بيروت- لبنان).
- ياقوت الحموي، ياقوت بن عبدالله. (٦٢٦هـ/١٩٥٧م). معجم البلدان. ج٥. دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت - لبنان).

ب. قائمة المراجع العربية والأجنبية

- جرينفل، فريمان. (١٩٨٦م). التقويمان الهجري والميلادي. ترجمة: حسام الألوسي. دار الشؤون الثقافية. بغداد، العراق.
- الديوه جي، سعيد. (١٩٨١م). التربية والتعليم في الإسلام. مطابع جامعة الموصل. الموصل، العراق.
- رايس، تامارا تالبوت. (١٩٦٨م). السلاجقة: تاريخهم وحضارتهم. ترجمة: لطفي الخولي، وإبراهيم الداقوقي. مطبعة الإرشاد. بغداد، العراق.
- الزركلي، خير الدين. (١٩٩٢م). الاعلام. ج٨. دار العلم للملايين. بيروت، لبنان.
- زمباور. (١٩٥١م). معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي. أخرجه: زكي محمد حسن، وحسن أحمد محمود. مطبعة جامعة فؤاد الأول. القاهرة، مصر.

- محبوبة، عبد الهادي محمد رضا. (١٩٩٩م). نظام الملك: دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة، مصر.
- Nizam al-Mulk. (1986). Encyclopedia Britanica. vol.8, (Chicago-U.S.A).
- Nizam al-Mulk. (1987). encyclopedia of Religion. vol.10. (New York, London-U.K).
- H.Bowen. (1999). Nizam al-mulk. http.www.muslimphilosophy.com *from the Encyclopedia of Islam*. vol 8. Brill. (leiden- Netherlands).